سلمى الخضراء الجيوسي

البطل في الادب العربي المعاصر
الشخصية البطولية والضدية

لماذا نتحدث عن الادب العربي عامة ولا نكتفي بالتخصيص فنتحدث عن الادب المحلي في كل دولة عربية . انه لصحيح اننا لا نتردد في التحدث عن مواضيع خاصة ، كالرواية المصرية والشعر العراقي وادب المقاومة الفلسطيني والشعر القومي في سوريا وادب النهضة النسائية في لبنان ، غير أن كل هذه فروع من موضوع واسع شامل هو الادب العربي الموحد .

نعرف ان العالم العربي منقسم الى دول مستقلة سياسيا ذات انظمة مختلفة ، ونعرف كل ذلك الحديث الطويل عن الخلافات السياسية الكثيرة ، وعن التقلبات المستمرة في الموقف والعلاقات بين بلد وآخر ، ونعرف ان هناك تفاوتا كبيرا في الانظمة الاقتصادية ومستوى المعيشة والمناهج التربوية والموقف من الحرية والحداثة ، ومع كل هذا فان هناك نوعا من الترابط في العالم العربي اكثر من مجرد وحدة اللغة والتراث المشترك ، رابطة نراها ونلمسها في مشاعر الجموع العربية في كل مكان وفي احلامها ومطامحها .

بالنسبة الى الادب يمكننا القول بأن الادب العربي الطليعي تعبير عام عن رؤيا الانسان المعاصر في العالم العربي ، موحد اجمالا في الاتجاهات التي يعكسها ، في نوع الغضب والرفض والاحتجاج الذي نلتزمه ، وفي القضايا العامة التي يتناولها ، هذه الوحدة في الادب المعاصر تتيح مجالا واسعا امام الباحث لاختيار موضوع عام يندرج على هذا الادب . بالمقارنة نجد ان الادب المكتوب باللغة الانجليزية يفتقر الى هذا النوع من الوحدة . فالادب الاميركي المعاصر يختلف في اهدافه واهتماماته ورؤياه واتجاهاته ، وحتى في قاموسه اللغوي عن الادب الانجليزي المعاصر ، بينما تتحد الرؤيا العامة في ادبنا المعاصر ، الطليعي منه ، وهي رؤيا كثيرا ما تعكس الانسان في حالة صراع مستمر اذ يحاول ان يجد هويته في العالم الحديث وهو يحارب على جبهتي الظلم الاجتماعي والقهر السياسي .

* * *

الموضوع الذي اقمت عليه هذه الدراسة هو موضوع « البطل » في الادب العربي المعاصر . وهو موضوع يصلح بكتاب مطول بالنسبة الى تشعبه وتلونه . انواع كثيرة من الابطال تندرج تحت هذا الموضوع العام منها البطل العربي والبطل الثوري والبطل المأساوي والبطل المتمرد والبطل التاريخي النموذجي والبطل اللامنتمي والبطل الضحية ونقيض البطل .. الخ .

بالنسبة لاتساع الموضوع خصصت لهذا البحث دراسة نوعين فقط وهما الشخصية البطولية ـ الضحية كما يمثلها الادب الطليعي اليوم لاهميتها في هذه الفترة المعاصرة . واعترف بانني لن اتمكن ان انيها حقها من البحث في زمن محدد . وقد حال تخصيصي لهذين النوعين دون البحث في بعض التجارب الادبية المهمة التي عالجت انواعا اخرى من الابطال ، كالبطل اللامنتمي او الرافض ، والبطل النموذجي التاريخي .

نظرة عامة في معالجة البطل في الادب العربي المعاصر :

ان معالجة البطل في هذا الادب لا تعكس فقط احتياجات القارىء بل رؤيا الكاتب الابداعي نفسه وموقفه الشخصي من العالم . وقد وجدت ، في دراستي للادب المعاصر ، ان معالجة البطل في الشعر عندنا تختلف قليلا عن معالجته في القصة والرواية . فعلى سبيل المثال نجد ان الشعر المعاصر يهتم اكثر من القصة في تصوير الشخصية البطولية . لقد مضى زمن طويل منذ كتب جرجي زيدان رواياته التاريخية الكثيرة التي امتلأت بصور الشخصيات البطولية الفائقة المتمتعة بمزايا الرجولة الكاملة من شجاعة ونزاهة وشهامة واعمال مجيدة . أما اليوم فان المنحى الواقعي قد غلب على العمل القصصي ، والروائي والقاص عندنا اليوم اصبح يقدم نماذج اخرى للبطل .

لعل احدى السمات العامة « للبطل » في الادب الطليعي المعاصر هي انه ليس في محل ارضاء احتياجات المجتمع الارستقراطي او الطبقة الغنية المرتاحة في العالم العربي . العوامل العقائدية والتاريخية التي توجه اختيار البطل هي تلك التي تؤكد كرامة الانسان ومساواته ومسئولياته وحقه في اختيار مصيره . تنبع هذه العوامل ، على الصعيد النظري من مفهوم الحرية والعدالة والتحرر والتقدم ، واحيانا من الاخلاقية العقائدية في العالم العربي ونقف باستمرار ضد الاستبداد الداخلي والعدوان الخارجي والفساد والاستغلال واحيانا ضد الطبقية . وعلى الصعيد التطبيقي يبدو البطل في عدد كبير من الاعمال الادبية في حالة صراع مستمر يحاول ان يحيا القيم الجديدة وان يهزم القوى الشريرة في المجتمع التي تناهض تلك القيم وتحاول أن تدحر تقدم الانسان . ويبدو البطل احيانا انسانا مضطهدا عاجزا عن التغلب على ظروفه السيئة بسبب عدم وعيه وجهله لحقوقه ومعنى حياته . وقد يكون البطل الرئيسي في العمل الادبي بطلا سلبيا او ما نسميه بنقيض البطل ، وفي هذه الحال نراه ينكص عن القيم الجديدة او عن المثل العليا في معناها الانساني الشامل .

ويختلف عالم البطل عندنا بالطبع من عمل أدبي الى آخرحسب الدور الذي يلعبه البطل . غير ان هذا العالم في الادب الطليعي كثيرا ما يكون خاضعا لرياح التغيير والقلق وهو مليء بصور الافراد الساعين لخلق تركيب جديد للعالم الذي يعيشون فيه وبصورالافراد الذيـــن يعاكسونهم .. ان نموذج البناء والهدم مستمر . غير ان نموذج الهدم في هذا الادب لا يجيء سلبيا دائمـا فهو يتضمن في بعض الاعمـال الادبية ، تهديم العالم الفاسد الذي قاد العرب المعاصرين ومـا زال يقـودهم الى النكبات .

الشخصية البطوليـــة :

كان مدح صفات الرجال البطولية من اهم مواضيع الشعرالجاهلي ـ فقد مجد هذا الشعر صفات الذيـن تمتعوا بمزايـا القوة والنجدة والشهامة وفاقوا بها سواهم من الناس ، وبقيت البطولـةوالفروسية جزءا من التراث الشعري مدرجـة في قواعد المديح والرثاء في عمود الشعر لتصف بالاضافة الى سواها كفضائل الحكمة والمعرفة والعدالة نموذج الرجل العظيـم .

واكتسى النموذج البطولي روحا ملحمية في القصص الشعبـي العربي الذي اشتمل على معالم البطولة في الملحمة الاوروبية ،فيالوقت نفسه الذي راح فيه الشعر العربي ينحدر عن المستوى البطولي الاصيل الى تفاهات شعر التزويق والتقليد في عصور التجمد ، غير ان تيقظ العرب في اواخر القرن التاسع عشر الى حقيقة الاحتلال الاجنبيلبلادهم ونمو الروح القومية مهدا لبروز الشخصية البطولية من جديـد فـي الادب . وقد تبلورت معالم هذه الشخصية واكتسبت صفات اكثرحداثة وتلاؤما مع العصر باشتداد الكفاح القومي ضد الاستعمار ، وظهرتبقوة شخصية البطل المحرر والبطل الفدائي ، وتحدث الشعراء عن الابطال بما يقارب الاجلال والخشوع . كتب ابراهيم طوقان (ت ١٩٤١) عددا من ابدع قصائده عن البطل القومي المنقذ وعن الفدائي الشهيد ، كان بطله بلا اسم ولا وجه يمتلك صفات تكاد تكـون خارقـة فهو البطلالذي حملته جبهته طرفا من رسالته والذي ارعب بجرأته الموت نفسه .ومجد زميل طوقان عبدالرحيم محمود (ت١٩٤٨) فكرة الكفاح كفعل مستمـر ما دام العدو قائما متحكما ، كمـا مجد الشهداء الذين يواجهـون استشهادهم بالقبول والرضى ، ويفدون وطنهم بدمائهم ، مؤكدا بان رايـة الوطـن لا يمكـن أن ترتفع الا على جماجم الشهداء .

ولعله تكرار لامر معروف ان نتحدث عن تأثير النكبة وكلنا نعرفرد فعل العرب لهـا وكيف استجابوا بسلسلة من الثورات والانقلاباتجعلت من المنطقة مسرحا للتحرير السياسي المستمر ، وقبل أن يستقر العرب على وضع حدثت النكسة وهزت اسس المجتمع العربي وعمقت فيالعرب الشعور بالذنب والخجل . وفي الوقت نفسه غيرت اتجاه جزء كبيـر من الشعر ، ففـي البدء دارت الامة على نفسهـا رعبا وكرها للذات ، وجاءت قصائد التانيب والتقريع شافية لاحاسيس الخجل الذياحدثته النكسة ـ كان سهلا على ادونيس آن يقول « هل اتى نهر بلا مصب »؟ وان يصيح قباني « انعي لكم يا اصدقائي اللغة القديمة » ، ومع ان سعدي يوسف ضمـن قصيدته « تأملات عند اسوار عكا » رؤيـا ايجابية للمستقبل الا انهـا كانت في الوقت نفسه مفعمة بمعاني رفض الذات وكرههـــا .

غير ان بروز المقاومة الفلسطينية واشتدادها فينهاية الستينات خفف من مشاعر كره الذات ومهد لرؤيا مليئة بالعزم والايمـان ، وكثر الشعراء من كتابة قصائد تمجد العمل الفدائي وتحمل لهجة التحدي والتصميم وقد حملت هذه القصائد معاني بطولية تتحدى قوى الشر والعدوان ، في هذه الفترة اصبح حب البطولة شوقـا ملحا والفداء حالة نفسيـة ملموسة .

وكان وصول الشعر الفلسطيني في اسرائيل الى العالم العربـي بعد ١٩٦٧ من اهم المؤثرات على الشعراء العرب فقـد امتلأ شعـــر الشعراء الفلسطينيين في اسرائيل بمعاني المقاومة والتحدي ، فقـاد الموجة . وبرزت في شعـر المقاومة صورة البطل الفدائي المكافح فـي سبيل الحريـة . اذ لم يزل البطل عند طوقان رجلا لا اسم له ولا وجه، ولا سم له الا حمل رسالتهالى النهاية . في هذا الشعر لا ترى ، عادة، ملامح اخرى لحياة البطل الخاصة ، وعندما يسقط شهيد في الميدان فان شهادته نادرا مـا تقرن بفجيعـة اسرته فيه ، بل انه يعامل كانه ملك للامة ويجرد من كل صراع شخصي او قبلـي او نقص ، فنراه يمضي ثابتـا الى تحقيق فعل الكفاح لا يشغله شيء سوى قضيته . رجـل لا تناقضات فيه ولا تردد ولا ماضي ولا علاقات انسانيـة ولا اهتمامـات شخصية . لا شيء ، الا البطل والقضية والتركيز الكامل على الفعل وحده في لحظة معينة من الزمن .

يصف محمود درويش هذا البطل جيدا في قصيدته الطويلـة « هذه صورتهـا وهذا انتحار العاشق » . فالبطل هنا بلا لـون ولاشكل ولا ماضي ، محاصر بالرصاص والموت ، دمه بذرة وحنين ولكنه يمتد ونطول قامته حتى يصبح اعلى من المئذنة ويصير ثني لحظة واحدة هـو الشجر والرصاص والعطايا .

الفداء فعل من افعال الغضب وهو محض العطاء ولكنه وجه من وجوه العنف ايضا . ولا شك ان عصرنـا عصر غاضب . وقـد صور الشعراء ابطالهم وقد تقبلوا العنف كاسلوب محتوم للحياة والوسيـلة الوحيدة التي يتغلبون بهـا على العجز والانكسار ، كتب الشاعـــر الفلسطيني راشـد حسين الذي توفي في نـيويورك سنة ١٩٧٦ شعرا كثيرا عن العنف وصور عناء الابطال الذين يحاربون في وجه القمـع والعدوان حتى طفلته العربية وليدة القدس قادرة على ادخال الرعب على قلوب الصهيونيين ـ فعيونهم وآلاتهم نفتشهـا باحثة في صدرها ورحمهـا وعقلها عن القنابل اذ ان كل من يولـد في القدس من اطفال سيصبح يومـا قنبلة تنفجر في وجه الغدو المحتل .

ورغم انهماك هؤلاء الشعراء بمكـان وزمـان معينين الا ان العمل البطولـي الذي يصورونه يكتسب ابعادا شموليـة ، فهو ليس نتيجة الشجاعة الفردية فقط بل صرخـة الغضب الانسانية ضد العـــدوان والاندحار . وهي تنبع من غريزة الانسان التي تدفعه الى الخروجللدفاع عن حضارته وثقافته عندمـا تكونـان مهددتين . فمهمـا كان البطلرافضا للفوضى الداخليـة والفساد في مجتمعه فانه يخرج ليدافع عنسلامته وكرامته ، ان العمل البطولي ايجابي ونبيل دائمـا ـ وان كان فيالشعر المعاصر نموذج واحد يصور الحب الغيري المثالي فـان هذه الشخصية البطوليـة التي تنبري باستمرار للمـوت متجاهلة جاذبية الحـيـاة اليوميـة ومختارة العقل الذي يرفعهـا الى اعلى درجات البطولة .

في هذا المعنى يقف البطل في شعرنا اليوم للدفاع عن بلادهوامته وحضارته ، اي ان البطولة في شعرنـا المعاصر بطولة دفاعيه .فحتى عندمـا يخرج البطل ليحارب لانه بفضل وعيه العقائدي ، يدرك طبيعة الشر الكامن في العدوان الخارجي ، يظل فعله البطولي دفاعيـا لانه يهدف الى دفع العدوان وايقافه وازالته لا الى نشر عقيدة معينة . وهذا فرق كبيـر بيـن البطولـة اليوم كمـا يمثلهـا شعرنا وبينبطولة المساميـن الاوائل الذين خرجوا لينشروا الدين الجديد على العالم .

البطـل ـ الضحيـة :

لست اعني بالبطل ـ الضحيـة من راح ضحية الظروف الانسانية العامة كالموت والمرض والزلازل والفيضانات ـ بل ان ما اعنيه هـــو الانسـان او الجماعة من الناس الذين فرض عليهم العذاب او الموت بفعل الاخرين . قد يعـود هذا الـى اعتداء مقصود على الصعيـــد الشخصي او الجماعي او الى طغيان التقاليد والمعتقـدات والمؤسسات غير ان ظلم التقاليد وهو ظلم اجتماعي دائما ، لا يقع الا عن طريـــق الآخريـن . فـلو خرق الفرد قوانين المجتمع شرا ولم يكتشفه احد فانه عادة لا يصبح ضحيـة .

تصوير البطل ـ الضحية يهيىء المجال أيضا لتصوير قواعد السلوك الاجتماعي والاعراف الاخلاقية ، ويتيح للمؤلف حرية اكبر في تطوير شخصياته وتلوينها مما يتيحه النموذج البطولي . فالبطل البطولي الصافي القلب والروح الذي يعيش حياة مثلى ويموت موتا مثاليا لا يتعدى في تصوير الشعر المعاصر له تعبيرا واحدا . انه دائما مالوف يستطيع القارىء ان يتكهن باوصافه مثل الاطلاع على العمل الادبي، اما الابطال الاخرون فيختلفون عنه . انه البطل الثوري مثلا ، قد يعاني الوانا من الصراع وقد يرتكب اخطاء ، وقد يغير سلوكه ويتأمل في مصيره . والبطل ـ الضحية قد يواجه تغيرا فجائيا أو بطيئا في مواقفه .فهو قد يثور وينهار وقد يتعذب ويموت بصمت او قد يعاني عددا كبيرا من ردود الفعل . ثم ان البطل البطولي يقف عادة الى جانب المجموعة الكبيرة وهي بدورها تسانده . بينما يكثر ان يكون البطل الثوري وحيدا معزولا يكافح ضد عقلية المجموعة الكبيرة . وقد يخرق البطل الضحية قوانين المجتمع مدفوعا الى ذلك بوعيه او باحتياجاته او اهوائه ، ثم يقع ضحية فعله . غير ان هذه الانواع الثلاثة من الابطال ليسوا متناقضين بالضرورة . فالبطل الثوري قد يقوم بعمل بطولي من الشجاعة والتصميم والصمود والاستعداد للموت يؤدي به الى معاناة اقسى عذاب ويصبح بذلك ضحية .

ان الادب العربي الطليعي المعاصر حافل بصور الضحايا ويحمل دائما معنى الاحتجاج والنقد الاجتماعي او السياسي . ويتنوع تصوير ضحايا السياسة في هذا الادب ولكنه يعكس عالما محاصرا بالاعداء الخارجيين او حائلا بالقمع الداخلي وتحكم الانظمة المختلفة التي تدعي اخلافية زائفة من ضحايا السياسة الاعداد الكبيرة من البشر الذين قتلوا او تيتموا او سجنوا او طردوا من وطنهم . وقد كانت محنة اللاجئين الفلسطينيين موضوعا لعدد من الاعمال الادبيةقبل سنة ١٩٦٧كاقصوصة غسان كنفاني « رجال في الشمس »(١٩٦٢)صورت هذه الاقصوصة مأساة اربعة من الفلسطينيين اللاجئين الذين فرض عليهم بحكم غربتهم عن وطنهم ان يبحثوا عن رزقهم اليومي ضد جميع تناقضات الحياة العربية . فلكي يدخلوا الى الكويت وهي لهم عندئذ بلاد السمن والعسل اضطر ثلاثة منهم ان يختبئوا داخل خزان ماء يملكه فلسطيني رابع . كان هذا قد اكتشف أن تهريب الرجال يدر ربحا اوفر بكثير من نقل الماء من البصرة وكان هو نفسه ضحية العدوان سنة ١٩٤٨ الذي فقد فيه رجولته . ان اقسى انواع السخرية في القصة هي ان هذا الرجل اضطر ان يصغي طويلا بلا احتجاج وتذمر الى شرطة الحدود وهم يمازحونه حول مغامراته الجنسية في الليلة السابقة في البصرة بينما كان الرجال الثلاثة المختبئون في خزان الماء يختنقون تحت شمس الكويت الملتهبة . بعد ذلك اذ القى جثثهم خارجا نراه يصيح بهم : « لماذا لم تدقوا على باب الخزان ؟ » القصة مأساة كاملة . فما الذي منع اولئك الفلسطينيين ان يدقوا على باب الخزان فيعلنون عن وجودهم ويتخلصون من الموت ؟ هل كان هذا يعود الى خوف اصبح غريزيا فيهم من عيون السلطة القاسية التي حاصرتهم اينما ذهبوا منذ يوم هجرتهم الاول ؟ ام انه يعود الى اعتيادهم الصبر الطويل وقد الفوه في بلاد الاخرين ؟ كيف تسنى لهم الثلاثة اذ اتحدوا في الخطر المحيق بهم ان يتفقوا ايضا على صمت قادهم الى الموت ؟ وكيف يرضى الانسان أن يختنق دون أن يصرخفي وجهالموت ؟

نوع اخر من الضحايا السياسيين هم ضحايا القمع والرقابة في العالم العربي . ان مشكلة الحرية والارهاب موضوع رئيسي في هذا الادب لانه تجربة رئيسية في الحياة العربية يعالجه عدد من الاعمال الادبية . في هذا الادب يقف البطل ـ الضحية وجها لوجه امام سجانه او المخبر عنه ـ وقد برزت شخصيتا السجان والمخبر كنموذجين مهمين لنقيضي البطل في ادبنا المعاصر .

اصدر نجيب محفوظ رواية الكرنك سنة ١٩٧١ وفيها يصور اوضاعا مختلفة للضحية وقد حاصرتها آلة السلطة واستبدت بمصيرها. فحلمي حمادة تعذبه الشرطة حتى الموت وصديقاه يغريهما العذاب بقبول التسوية ويقودهما الى الفساد . ان حلمي حمادة مثل ممتاز للبطل الثوري الذي يسلك مسلكا بطوليا ويموت ضحية صموده . فبالرغم من السجن المكرر والتعذيب يستمر في موقفه الثوري وتحديه للسلطة ويرفض ان يبوح بأية معلومات . مما يقوده الى الموت تحت التعذيب . وتتركز بقية الرواية حول اللااخلاقية الكامنة في السلطة الارهابية : حول تدرتها على افساد الضحايا الذين يقعون في ايديها فالشخصيتان الاخريان زينب واسماعيل ، ينهاران تحت العذاب ليصبحا مخبرين ، وزينب نفسها تتحول الى بغي ايضا .

وقد دار عدد من الاعمال المسرحية حول مشكلة الحرية والقمع ـ ويتضمن عدد من المسرحيات محاكمات تقود الى ادانة البطل الضحية. كما في مسرحية صلاحعبدالصبور « مأساة الحلاج » (١٩٦٥) فهي تدور حول حياة الصوفي الشهير وموته في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي اذ آصر على عقيدته في العدالة الاجتماعية فقاده اصراره الى الادانة والموت صلبا . وكتب الشاعر السوري ممدوح عدوان مسرحية نثرية بعنوان « محاكمة الرجل الذي لم يحارب » (١٩٧٢) تدور حول مأساة رجل تآمرت على ادانته قوى الشرطة والاستخبارات والقضاء في زمن عصيب منيت فيه الامة بالانكسار . فالضحية هنا يحاكم لانه لم يشترك في حرب خسرها جيش بلاده قبل ان يتمكن هو من الاشتراك فيها . وقد اختار المؤلف الغزو المغولي للشرق الاوسط زمنا لمسرحيته غير انها تحمل دلالات معاصرة شديدة الوضوح . هذه الاعمال كلها تدور حول مشكلة الحرية وصراع الانسان البريء في وجه التعصب والقمع.

وكثيرا ما نقترن الاوضاع الاجتماعية المتردية التي تحيط بالضحية بالاوضاع السياسية ايضا ، فقصيدة السياب « المومس العمياء » و « حفار القبور » تشيران الى ان العذاب الاجتماعي انما هو نتيجة الفساد السياسي . ويمتلىء شعر السياب بصور البشر المكافحين الذين يقعون ضحايا الفقر والظلم ويعانون تجارب لا تحتمل لكي يحصلوا على خبزهم اليومي ـ فمومسه العمياء التي تبيع جسدها لتشتري زيتا يضيء مصباحا لا تراه جنبا الى جنب مع المهاجرين الذين يغرقون وهم يسعون الى رزقهم . الى جانب البحار الميت وهو ملقى يشرب المياه المالحة على شواطىء الخليج، الى جانب مئات الافراد الذين يصارعون الحياة ليسدوا اقل احتياجاتهم اليومية ، الى جانب القروي البريء الذي تبتلعه شرايين المدينة الفاسدة . ان ضحايا المجتمع كثيرون في الادب الطليعي المعاصر عندنا ،ضحايا الاخلاقية المزيفة ، والتفقر ، والطبقية ، والاستغلال ، والبحث في معالجتهم في الادب يستحق كتابا كاملا . وتكاد تهدف جميع الاعمال القصصية الطليعية الى فضح الاوضاع الاجتماعية (واحيانا السياسية ايضا) في العالم العربي . ففي قصص زكريا تامر تلتحم العوامل السياسية والاجتماعية لتكون جوهر المشكلة . لقد استطاع تامر ان يصل بالقصة القصيرة في سوريا الى درجة راقية بتصويره لواقع الرعب والظلم في الحياة العربية المعاصرة . وهو يلجأ احيانا الى الرمز واحيانا الى النموذج التاريخي ليصل الى هدفه . فالضحايا في مجموعة « الرعد » (١٩٧٠) الذين يتوقون الى الحياة الطبيعية والحرية يجدون انفسهم باستمرار محرومين من جميع الامكانات التي قد توصلهم الى مخرج من عذابهم ، فهم محاصرون ، محكوم عليهم بالعذاب والرعب . بالرغم من تغلبالقهر في قصص تامر على منازع البطولة في الانسان فان هدف الكاتب انما هو تقويض الاوضاع الفاسدة بتصويرها وهي في اوج تعنتها وتحكمها بالضحية والاستسلام في هذه القصص ليس قبولا ولكنهرفضكامل .

واهتم نجيب محفوظ في رواياته الاخيرة بتصوير عدد منالشخصيات السلبية الفاشلة . وكثيرا ما يجمع بين شخصيتي الضحية ونقيض البطل . يختار محفوظ شخصياته الرئيسية عادة من حياة المدينة (زهرة بطلة ميرامار استثناء لهذا) : موظفو حكومة كرمز للبيروقراطية رجال الشرطة كرمز لارهاب السلطان ، بغايا وخدم كرمز للطبقات المستغلة ، لصوص وقتلة كرمز للفساد ، او شخصيات ميسورة الحال من الطبقات الوسطى . ان اغلب شخصيات محفوظ في رواياتهالجديدة

يفتقرون الى المواقف البناءة التي يتوقعها الانسان في الاعمال الادبية المكتوبة في زمن الثورات والتغير الاجتماعي والسياسي ، غير أن هذا يعود الى رؤيا الكاتب ورد فعله للحياة المعاصرة ، فتثاقؤه لهذه الشخصيات تعبير عن حكمه على المجتمع وحركته واصالة التغير الذي يصيبه او عدم اصالته . وتكثر في روايات محفوظ صور نقيض البطل وقد سقط في شباك من اخطائه هو آن في قبضة المجتمع . آن اللص الذي يتحول الى قاتل في رواية «اللص والكلاب » (١٩٦١) يعورعبثا في بؤرتين من الحب والايمان اذ يحاول آن يهرب من عالم مليء بالخيانة الشخصية : خيانة زوجته وخيانة اصدقائه . والرواية تبرهن على ان المجرم نفسه قد يكون ضحية . وفي النهاية يجد اللص نفسه وحيدا لا يستطيع ان يصل الى المرأة التي تمنحه الحب ولا الى الشيخ الذي يمنحه الرحمة ويقع فريسة كلاب الشرطة التي تمزقه .

يشعر الانسان اذ يقرأ محفوظ في اعماله الاخيرة بانه قد قرأ الكثير لكافكا ويونيسكو وساموبل بيكيت ، فروايته« ثرثرة على النيل» (١٩٦٦) تتحدث عن العبث واللاجدوى . انها تصور جماعة ممن رزقوا بعض الثقافة آذ يجتمعون كل ليلة في عوامة على النيل في القاهرة حيث يعد لهم خادم عجوز الحشيش والنساء . انهم كما يصورهم محفوظ ، لا يجدون بارقة امل واحدة في النظام الاجتماعي والسياسي القائم ويلجأون الى الخدر والجنس لينسوا الواقع متحدثين بشيء من اللامبالاة عن الحياة المعاصرة في مناحيها المختلفة . الملل موقف اساسي في هذه الرواية ، والرواية كلها تضخيم للعنة الروحية والعجز ـ غير اننا نستخلص من الرواية ان العجز نتيجة النظام القائم .

ان موضوع الغربة الروحية من اهم مواضيع الادب الطليعي عندنا لا سيما الشعر ، غير ان الابطال المغتربين ليسوا دائما ضحايا .اغلبهم لا سيما كما يصورهم الشعر ، اما رافضون آو متمردون يحاولون ان يجدوا حلا لفوضى الحياة العربية المعاصرة . ويسعون نحو الاتحاد والنظام . اما في روايات نجيب محفوظ الاخيرة . فان هؤلاء الابطال المغتربين ضحايا شديدو الهشاشة خالون من القوة الحقيقية واغلبهم كما يصورهم محفوظ دائمو البحث عن هدف لا يجدونه مطلقا . ففي رواية « الطريق » (١٩٦٥) نرى صابر البطل الرئيسي يبحث عبثا عن اب لم يره قط وينتهي بارتكاب جريمة قتل مضاعفة . وفي رواية « اللص والكلاب » يبحث سعيد مهران باستمرار عن ملجأ يجد فيه السلامة والامان وفي رواية « الشحاذ » (١٩٦٥ يبحث عمر عن حل لاسئلة كونية لا يجد لها جوابا ويبحث عيسى في رواية « السمان والخريف » (١٩٦٢) عن حل لمشكلته السياسية والحياتية دون ان يتوصل الى نتيجة . دائما نجد نوعا من المسعى الفاشل ـ فحتى زهرة بطلة ميرامار، القروية البريئة ، لا تعثر على بغيتها ابدا ، ونراها في النهاية تترك الفندق حيث كانت تخدم وحيث عرفت الحب والخيبة لتبحث من جديد عن مستقبلها . فبالرغم من أن الرواية تنتهي على وتر ايجابي الا ان المسعى فيها لم يتحقق بعد .

وتصور ثرثرة فوق النيل توقف كل مسعى ـ فحتى الصحافية التي تجيء ساعية وراء المعلومات ينالها فساد الاخرين في العوامة فتفقد اهتمامها بهدفها الاصلي . لقد توقف الزمن كليا في هذه الرواية ـ وهو لا يتحرك الا اثر حادثة السيارة الذي ينتهي بموت رجل عابر بريء ـ ومع ذلك فان الفعل الذي ينتج عن هذا الحادث يظل فعلا سلبيا اذ ان انيس زكي عندما يقرر آن يذهب الى الشرطة ليخبر عن الحادث لا يفعل ذلك الا انتقاما وتصميما على الهدم : هدم الذات والاخرين .

عندما يتحدث يوسف ادريس مباشرة عن البيئة المصرية وضحاياها يجيء وصفه اكثر حيوية من وصف محفوظ فكان الكاتب منهمك شخصيا في الحدث . في اقصوصته البديعة « قاع المدينة » يرافق القارىء القاضي عبدالله في رحلته المرهقة عبر احياء القاهرة الفقيرة التي تزداد فقرا وبؤسا باطراد الى ان يصل معه الى قاع المدينة حيث تسكن خادمته الضحية . ويكتشف القارىء الحساس بانه قد سار رحلته في اعماق وعيه الاجتماعي الذي اغتنى معرفة واعية بابعاد البؤس الاجتماعي الذي يعيش فيه فقراء القاهرة والمدن العربية الاخرى . ان قصة ادريس هذه ومعها رواية « الحرام » (١٩٦٥) تتضمنان احتجاجا صارخا على الاوضاع الاجتماعية البائسة في مصر وهي اوضاع تنتظم المجتمع العربي كله تقريبا ، تدور رواية الحرام حول تصرف الافراد الذين لم ينفذ اليهم اي وعي اجتماعي حيث وقد وقعوا في شبكة من الاحداث التي تتخذ بحكم انعدام وعيهم ، مجرى محتوما فهم يواجهونها بعقلية تقبلت الوضع الاجتماعي الموروث ، الجريمة التي ترتكبها عزيزة البطلة وهي قتل وليدها غير الشرعي ، ليست جريمة شخصية بل جريمة اجتماعية اذ انه لا مجال لدرء الفضيحة وما يترتب عنها من قصاص الا بالقتل .ان سخرية القدر في هذه القصة تتركز في ان عزيزة هي اكثر ابطال الرواية تمتعا بالفضيلة والاخلاق الكريمة ـ فهي ذات شخصية ايجابية تواجه مسئولياتها بقدرة ونبالة . وقد كان حملها نتيجة للقائها العابر مع شاب قروي ساعدها على استخراج بعض حبات من البطاطا كان زوجها المقعد قد اشتهاها . واصبح فعل المسئولية فعلا لا مجديا ضمن الاطار الاجتماعي الذي تعيش فيه البطلة ـ فوقعت الضحية للفقر والطبقية والمحاظير الاجتماعية التي لا ترحم.

الضحايا النساء في الرواية العربية المعاصرة لسن عادة واعيات للشر الكامن في المحاظير المفروضة على المرأة في المجتمع العربي التقليدي ، بل انهن يتقبلن هذه المحاظير كقانون طبيعي للحياة . ويكثر آن يكون خطا واحدا تقع فيه المرأة سببا في السقوط النهائي او الموت . روايات نجيب محفوظ مليئة بالنساء الضحايا اللواتي يتحولن الى بغايا نتيجة لتجربة جنسية واحدة تقع نتيجة الهوى او الاغتصاب ، ونجد المرأة عادة في وضع تقبل وايمان بالمحاظير الاجتماعية ، فعزيزة بطلة الحرام تناضل بما يشبه البطولة نتيجة لايمانها بقانون المحاظير الاجتماعية واحترامها له .

اما عندما نجد البطلة في الرواية الطليعية المعاصرة واعية لظلم القانون الاجتماعي للمرأة فانها عادة تكون بطلة متمردة رافضة، لا ضحية ، كما نجد في اعمال ليلى بعلبكي . غير ان الوعي قد يعود احيانا الى المأساة . فبطلة الطيب صالح في « موسم الهجرة الى الشمال » توصلت عن طريق زوجها مصطفى سعيد الى الوعي بكرامتها الانسانية ولكن وعيها هذا قادها في النهاية الى الفجيعة . الى قتل زوجها الجديد الذي فرضته عليها اسرتها والانتحار . فيدور الفصل الاخير في الرواية حول الوعي الاجتماعي الذي يواجه به الابطال مجتمعا سكونيا غارقا في التقاليد يمثله الجو وعصبة الاصدقاء حوله يدور حول العقل الذي عرف معاني اخرى للحياة اذ يصطدم بالعقل المتشبث بالتقاليد والاعراف والمحاظير الموروثة .

كانت هذه دراسة موجزة لنوعين من الابطال في الادب العربي الطليعي المعاصر ولعلهما حتى الآن اكثر الابطال ورودا في الادب عندنا. الا ان المستقبل القريب قد يرى تطويرا لنموذج البطل الثوري ونضجا اكبر في تقييم الاوضاع العامة ومواجهتها غير ان النوعين السابقين سيحتفظان باهميتهما ما دامت اوضاعنا الاجتماعية والسياسية المعاصرة في صراع حاد بين قوى الثورة الحديثة وقوى التقهقر الرجعي في العالم العربي .